البكاء والمآتم في الطقوس العاشورائية الكربلائية

احمد عبد الله رشيد

أ.د ميثم مرتضى نصرالله

الملخص

في هذه الدراسة الموسومة ب(البكاء وألمآتم في ألطقوس العاشورائية الكربلائية) تعرضت لتعريف الطقوس في أللغه والأصطلاح ، وبعدها انتقلت إلى ألبكاء في ألطقوس ألعاشورائية ، وكيف كان الأئمة ألأطهار (عليهم ألسلام) يشجعون ألناس على ذللك ، وبعدها تناولت ألمآتم في ألطقوس ألعاشورائية التي كانت محطة عناية ألأئمة ألأطهار (عليهم ألسلام) وأستعرضت كذللك ألأدوار للمأتم ألحسيني منذ نشأته وحتى ألآن.

المبحث الأول: البكاء في الطقوس العاشورائية

إن من المطالب المهمة التي لا بد من ذكرها قبل الانتقال الى التفصيل ،هو تبيان الاصل اللغوي لكلمة طقوس ،ومن ثم التعريف بها من الناحية الاصطلاحية ،فقد غلب الاستعمال على الطريقة الدينية ،فهو بمعنى النظام والترتيب واقامة الشعائر[1]،اما المعنى الاصطلاحي للطقوس ،فقد عرفت بأنها مجموعة من حركات سلوكية متكررة ،يتفق عليها ابناء المجتمع[2]، من المعلوم أن الطقوس العاشورائية هي طقوس حُزن لا فرح، فيها يتم استذكار كل موقف أليم ألمَّ بالإمام الحسينﷺ وأهل بيته الطاهرين وتلك النخبة التي خرجت معه على الظالمين، وإذا ما عرفنا أن المصاب جَلَل والحُزن شديد فلا غرابة في أن ما يُصاحب الطقوس التي هي إمّا: زيارة أو قراءة المقتل، أو إنشاد الشعر، أو ممارسة الفعاليات المختلفة من لطم الصدور والتطبير وضرب السلاسل وغير ذلك، سيكون مصطحبًا بالبكاء الذي هو ظاهرة إنسانية يشترك فيها جميع بني البشر، وهي فطرة جعلها الله تعالى فيهم، فقال تعالى: (وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى)[3].

ونقل لنا القرآن الكريم صورةً مؤلمة لذلك الموقف الذي تعرّض له أحد أنبيائه، ذلك الموقف الذي جعله في أشد حالات الحُزن، وتلك الصورة هي ما تعرّض له النبي يعقوبﷺ الذي فقدَ ولده يوسُفﷺ سنوات كثيرة، فبكى عليه حتى أثّر ذلك في عينيه فأصبح فاقدًا لبصره، قال تعالى: (وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ)[4].

ونقرأ مشاعر الحزن والبكاء في سيرة النبي الأكرم ﷺ، وسيرة الأئمة الطاهرين عليهم السلام، فالنبي ﷺ لما شاهد ولده إبراهيم يجود بنفسه واضعًا إيّاه في حجره، بكى عليه ودمعت عيناه وهو يقول: ((تدمع العين، ويحزن القلب، ولا نقول ما لا يُرضي الرب، وإنّا بك يا إبراهيم لمحزونون))[5].

وتجدّدت أحزان رسول الله ﷺ مرة أخرى، ولكن هذه المرة كانت حزنًا على حفيده الإمام الحسين عليه السلام فقد كان يبكي عليه كثيرًا بعدما أخبره الوحي أن ابنه هذا سوف يُقتَل بأرض كربلاء[6].

وبكى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام على ولده الإمام الحسين عليه السلام، ومما يروى أنه لما مرَّ بأرض كربلاء ونزل بها ذكر لمَن كان معه مصرع ولده فبكى بكاءً طويلًا وبكوا معه[7]، وكان الإمام يقول في حق ولده الحسين: ((يا عبرة كل مؤمن))[8]، وكان الإمام الحسين عليه السلام يقول عن نفسه: ((أنا قتيل العبرة لا يذكرني مؤمن إلّا بكى))[9].

هذه لمحة على ما ذُكرَ من البكاء على الإمام الحسين عليه السلام في حياته، وأمّا بعد استشهاده فلم يرد في أحدٍ ما ورد فيه من البكاء عملًا وقولًا، وفي حقيقة الأمر، لم يكن بكاء الأئمة لسبب عاطفي فقط، وإنما كانت الدمعة إعلان عن مظلومية الإمام الحسين عليه السلام وتذكير للأُمّة بما جرى عليه وعلى الذين استُشهدوا معه، ولذلك استمرّ البكاء وصار ظاهرة تصحَب كل فعالية عاشورائية وغيرها من مناسبات الحزن على سيّد الشهداء، وقد تم ترسيخ هذه الظاهرة عبر التأكيد المتكرر للأحاديث التي شجّعت على إسالة الدموع، وكذلك عبر إقامة المجالس عند القبر الشريف أو في المنازل، بل كان بعض الأئمة يستثمرون أبسط الأمور للتذكير بالقضية الحسينية، فالإمام زين العابدين عليه السلام بكى على أبيه عشرين سنة أو أربعين، حتى عُدَّ من البكائين الخمسة[10]، وما كان يوضَع بين يديه من الطعام إلّا بكى، حتى قال له أحد مواليه: ((جُعلتُ فداك يا بن رسول الله، إني أخاف عليك أن تكون من الهالكين، قال: "إنما أشكو بثي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون، إني لم أذكر مصرع بني فاطمة إلّا خنقتني العبرة لذلك))[11].

وذات مرة رأى أحد موالي الإمام وهو في سقيفة له ساجد يبكي، فقال له: ((يا مولاي يا علي بن الحسين أمَا آن لحزنك أن ينقضي؟ فرفع رأسه إليه وقال: "ويلك-أو ثكلتك أمك- والله شكى يعقوب إلى ربّه في أقل ممّا رأيتُ حتى قال: (يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ)إنه فقدَ ابنًا واحدًا وأنا رأيتُ أبي وجماعة أهل بيتي يُذبّحون حولي"))[12].

وترسيخًا لشعيرة البكاء وإسالة الدمعة على سيّد الشهداء، كان الإمام الباقر عليه السلام يقول: ((أيما مؤمن دمعت عيناه لقتل الحسين عليه السلام دمعة حتى تسيل على خدّه بوّأه الله بها غرفًا في الجنة يسكنها أحقابًا))[13].

وكانت كربلاء تشهد في أيام من السنة لا سيما في عاشوراء أجواءً من الحزن الشديد وممارسة مختلف الطقوس التي تسيل لها الدمعة ويحترق لها القلب، وقد نُقِلَت هذه المشاهد عند قبر الإمام الحسين عليه السلام إلى الإمام الصادق عليه السلام فصار يدعو لزائري القبر الشريف، إكرامًا لهم على ما خالفوا به الأعداء الذين قطعوا الوصال مع أهل البيت عليهم السلام، ولِما لاقوه أولئك الزوّار من غربة الأهل والوطن وتعب الطريق وما أنفقوه من الأموال، وكان من

ذلك دعائه في سجوده: ((اللهم...ارحم تلك الخدود التي تقلّبت على حفرة أبي عبد الله ﷺ، وارحم تلك الأعيُن التي جرت دموعها رحمة لنا، وارحم تلك القلوب التي جزعت واحترقت لنا، وارحم الصرخة التي كانت لنا))[14].

ويُلاحَظ من هذه الكلمات المنقولة عن الإمام المعصوم، أن الطقوس كانت تشهد أنواعًا غير طبيعية من البكاء، وهي التي عبّر عنها الإمام بـ (الصرخة)، وهي: صيحة شديدة عند فزعةٍ أو مصيبة[15]، فإليك أن تتخيّل هذا المشهد مع ما كان من المشاهد الأخرى، فهم ما بين مُقلّب خدّيه على تراب القبر الطاهر، وما بين مُحترق القلب، وما بين مسيل لدموعه، ولا غرابة في ذلك إذا ما علمنا بأن الإمام الصادقعليه السلام قد أشعل أجواء كربلاء بالحزن والبكاء من كثرة ما حدّث الشيعة يوم ذاك بفضل البكاء على جدّه أبي عبد الله ﷺ، ومن ذلك قوله لأحد أصحابه: ((إن السماء بكت على الحسين أربعين صباحًا بالدم، وأن الأرض بكت أربعين صباحًا بالسواد، وأن الشمس بكت أربعين صباحًا بالكسوف والحمرة، وأن الجبال تقطّعت وانتثرت، وأن البحار تفجّرت، وأن الملائكة بكت أربعين صباحًا على الحسينعليه السلام، وما اختضبت منّا امرأة ولا أدهنت ولا اكتحلت ولا رجلت حتى أتانا رأس عبيد الله بن زياد، وما زلنا في عَبرة بعده، وكان جدّي إذا ذكره بكى حتى تملأ عيناه لحيته، وحتى يبكي لبكائه رحمة له مَن رآه، وأن الملائكة الذين عند قبره لَيبكون، فيبكي لبكائهم كل مَن في الهواء والسماء من الملائكة))[16].

وكانت هناك إسهامات شخصية للإمام الصادقعليه السلام بعقد المجالس الحسينية في داره، فهو لم يكتفِ بذكر الأحاديث بل كان يحضر بين يديه الشعراء المؤجّجين للمشاعر، المنشدين في جدّه ما يُحرق القلب من الأبيات، وقد ورد في ذلك ما يؤكّد هذه المعاني، فقد رويَ عن أحد الشعراء أنه دخل على الإمام الصادق عليه السلام فقال له: ((أنشدني))، فأنشده بطريقة ليست كما هي عند القبر الشريف بكربلاء، فقال له الإمام: ((لا، كما تنشدون وكما تُرثيه عند قبره))، فأنشده:

امرُرْ على جَدَث الحسين فقُلْ لأعظمه الزكية

قال الشاعر: ((فلما بكى أمسكتُ أنا، فقال: "مُر"، فمررتُ، قال: ثم قال: "زدني زدني"، قال: فأنشدتُه:

يا مريم قومي فاندبي مولاكِ وعلى الحسين فاسعدي ببكاكِ

قال: فبكى وتهايج النساء، قال: فلما أن سكتنَ قال لي: "مَن أنشد في الحسين فأبكى عشرة فله الجنة" ثم جعل يُنقِص واحدًا واحدًا حتى بلغ الواحد فقال: "مَن أنشد في الحسينعليه السلام فأبكى واحدًا فله الجنة"، ثم قال: "مَن ذكره فبكى فله الجنة"))[17].

وتأكيدً على أهمية الشعر في القضية الحسينية، لما له من تأثير عاطفي في تأجيج المشاعر وإيصال المظلومية إلى الوسط الإسلامي وأن الدمعة والصرخة يومذاك كانت نوع من أنواع الثورة ضد الظالمين، كان الإمامعليه السلام يقول: (("مَن أنشد في الحسين بيت شعر فبكى وأبكى عشرة فله ولهم الجنة، ومَن

أنشد في الحسين بيتًا فبكى وأبكى تسعة فله ولهم الجنة"، فلم يزل حتى قال: مَن أنشد في الحسين بيتًا فبكى أو تباكى فله الجنة))[18]، وأمّا هو فقد كان إذا شرب الماء يستعبر وتغرورق عيناه بدموعه[19]، وكما ذكرنا سابقًا أن الناس كانوا يأتونه من كل مكان يعزّونه بذكرى مُصاب جدّه ويبكون وينوحون معه[20].

واستمر البكاء على الإمام الحسين عليه السلام مدوّيًا في بيوت أهل البيت عليهم السلام، ففي رواية واحدة يتبيّن عِظَم المصيبة عن الإمامين الكاظم والرضا عليهما السلام، لا سيما في شهر محرم الحرام وتحديدًا في العاشر منه، قال الإمام الرضا عليه السلام: (("إن المحرم شهر كان أهل الجاهلية يُحرّمون فيه القتال، فاستُحِلَّت فيه دماؤنا، وهُتِكَت فيه حرمتنا، وسُبِيَ فيه ذرارينا ونساؤنا، وأُضْرِمَت النيران في مضاربنا، وانتُهِبَ ما فيها من ثقلنا، ولم ترعَ لرسول الله ﷺ حرمة في أمرنا. إن يوم الحسين أقرح جفوننا، وأسبل دموعنا، وأذلَّ عزيزنا، بأرض كرب وبلاء، أورثتنا الكرب والبلاء، إلى يوم الانقضاء، فعلى مثل الحسين فليبكِ الباكون، فإنّ البكاء يحط الذنوب العظام". ثم قال: "كان أبي (صلوات الله عليه) إذا دخل شهر المحرم لا يُرى ضاحكًا، وكانت الكآبة تغلب عليه حتى يمضي منه عشرة أيام، فإذا كان يوم العاشر كان ذلك اليوم يوم مصيبته وحزنه وبكائه، ويقول: هو اليوم الذي قتل فيه الحسين (صلوات الله عليه)"))[21].

لو تأمّلنا في كلمة واحدة من كلمات هذا النص، وهي (أقرح) لكان فيها الكفاية للدلالة على كثرة بكاء أهل البيت عليهم السلام، فالتقرُّح في الجفون أي: تجرّحها وما ينتج عنها من الألم[22] لا يحصل ما لم يكن البكاء بكثرة، وهذا هو سرّ بقاء هذه الشعيرة ذات الأساس المتين حتى اليوم في الطقوس المختلفة التي يؤديها المعزّون.

إن البكاء في الطقوس العاشورائية وغيرها من المناسبات الحزينة، ليس تأنيبًا للضمير كما حاول أن يفهمه أعداء الشعائر والطقوس الحسينية، وإنما هو ناشئ من فرط المودة لأهل البيت عليهم السلام لمصابهم بالإمام الحسين عليه السلام والمعرفة الإيمانية بفضائلهم ومقاماتهم عند الله تعالى وفي الدين، وناشئ من شدّة الاستياء لقبح ظلم الظالمين لهم، وهتك حُرمة الله تعالى وحرمة الرسول صلى الله عليه وآله فيهم[23]، هذه الحُرمة المهتوكة صوّرها الإمام الرضا عليه السلام بقوله لأحد أصحابه: ((إنْ كنتَ باكيًا فابكِ للحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام، فإنه ذُبحَ كما يُذبَح الكبش))[24].

إذن، فالبكاء على الإمام الحسين عليه السلام هو تعبير عن حزن وألم ممض بفقدان عزيز يحبّه، وهو في الوقت نفسه رثاء له وعزاء للباكي، وتنفيس عمّا في صدره مما أصابه من كرب وكدر، ومن هنا فإن أغلب قرّاء المجالس الحسينية وشعراء المواكب الحسينية يستدرّون الدموع للبكاء على الإمام والنواح عليه[25]، وذلك إمّا عبر قراءة المقتل، والذي ظهر-كما مرَّ- في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، وزعيمه ابن طاووس الذي يقول: ((اللهم إننا نقرأ هذا المقتل عليك...هلمّوا واسمعوا ما جرى على ابن خير الورى، وارفعوا أصواتكم بالندب على ملوك أئمة القرى، واسبلوا العيون بالدموع..فهل من باكٍ يندب على الإسلام والإيمان، وهل من مواسٍ لملوك الأزمان، وهل من شاكٍ لكفران الإحسان، وهل معين على النياحة والعويل، وهل من جواد بالدمع على القتيل، وكيف يُغنِي شقّ الجيوب عن شقّ القلوب لسفك دماء الأحبّة بأرض الغربة، وسلب مصونات الأبدان وتركها عارية بغير أكفان، ومَن ذا يتخلّف عن المواساة للملوك الهُداة، ومَن يؤثر أن يكون محمد في مجلس العزاء مع الأنبياء

والأولياء، على مصابه بثمرة فؤاده بمخالفة مراده، وبتلف ما جاء به من الشريعة، وبما تجدد من الأمور الفظيعة، ولا يشاركه في عزائه والبكاء على ذريته وأبنائه))[26].

أو يكون البكاء بإثارة العواطف عبر قراءة أبيات من الشعر الشعبي تصوّر المأساة، أو قراءة القصائد المملوءة بالصور الحزينة، مثل قصيدة (جابر يا جابر ما دريت بكربلاء اشصار من شبّوا النار) لشاعرها الشعبي كاظم المنظور الكربلائي (1309-1394هـ/1891-1974م)[27].

وإنّ من أرق الأبيات الشعرية المعبرة عن أهمية الحزن والبكاء على الإمام الحسين عليه السلام ما كُتِبَ على لافتة كبيرة وبحروف سوداء بارزة عُلّقت في صدر قاعة كبيرة لأحد مواكب العزاء الحسيني في كربلاء-هذه الأبيات:

شيعتي ما إنْ شربتم عذب ماء فاذكروني

أو سمعتم بقـتيل أو جـريح فاندبوني

وصوّر الشيخ محمد علي الأعسم (1233-1154هـ/1741-1817م) حزنه وألمه وبكاءه على الإمام الحسين عليه السلام بأنه لأجله فقط وليس لطلب الثواب، فقال:

تبكيك عيني لا لأجل مثوبة لكنها عيني لأجلك باكية

تبتل منكم كربلاء بدم ولا تبتل مني بالدموع الباكية

وكما مرّ، صوّرت بعض كتب المقاتل وقرّاء العزاء الحسيني وكذلك بعض قصائد الشعر الشعبي الحسيني، مشاهد من واقعة الطف بكربلاء بشكل تصويري دقيق، ولكنه قاسٍ ومؤلم، مثل عطش الطفل الرضيع وقطع الماء عنه وقتله بسهم، من أجل إثارة عواطف المشاركين في العزاء واستدرار دموعهم[28].

المبحث الثاني: المآتم في الطقوس العاشورائية

ممّا هو ملفت للنظر في اللغة أن المآتم التي هي جمع مأتم، أنها كلمة لا تختص بالحُزن، فالمأتم عند العرب في الأصل: مجتمع الرجال والنساء في الغمّ والفرح[29]، ومَن يقول: كُنّا في مأتم فلان، يعني كُنّا في مصيبة، وهذا قول العامّة، والصواب أن يُقال: كُنّا في مناحة فلان[30]، ثم أن الكلمة صارت تستعمل لاجتماع النساء من أجل التعزية خاصة[31].

وحين يكون البحث في المآتم الحسينية، فلا شكّ بأن المقصود هو إقامة التعزية على سيد الشهداء عليه السلام، وقد عرَّف أحد علماء الشيعة في القرن الثالث عشر والرابع عشر الهجريين/ التاسع والعشرين الميلاديين، المآتم الحسينية على أنها: ((النوادي الخاصة المنعقدة للبكاء على ذلك القتيل الذي بكته السماوات والأرضون ومَن فيهن... صِلةً لرسول الله صلى الله عليه وآله وأداءً لحقه ولحقوق الأئمة، وإسعادًا للزهراء عليها السلام)) [32].

وتاريخيًا، فإن أول مأتم حفل بالبكاء كان في كربلاء ليلة استشهاد الإمام الحسين عليه السلام، وكان مأتمًا عائليًا تكوّن من السيدات والفتيات العلويات زوجات وبنات وأخوات الإمام الحسين عليه السلام والهاشميين الطالبيين الذي استشهدوا معه. وانضمَّ إليهن بطبيعة الحال نساء الشهداء من غير الهاشميين[33].

ثم يُروى أن من أوائل المآتم الحسينية التي أُقيمت بعد استشهاد الإمام الحسين عليه السلام هو ما كان في دمشق، ولعل هذا كان أوّل ورود لكلمة المأتم الحسيني، فقد ذكر الطبري (ت: 310هـ/922م)، أن نساء آل يزيد بن معاوية دخلنَ كلهنَّ على الأسارى من نساء البيت النبوي وهنَّ في دار يزيد، وأقمنَ المأتم[34].

ومن أوائل تلك المآتم أيضًا ما قامت به أم سَلَمَة زوجة رسول الله ﷺ، فإنها لما سمعت باستشهاد الإمام الحسين عليه السلام، طلبت أن يبنوا لها قُبّة في مسجد النبي ﷺ[35]، ومن المؤكّد أن تلك القبة لم يتم بناؤها لأم سلمة ولم تجلس فيها إلّا لتكون مكانًا للمأتم تبكي فيه وتستقبل النسوة المعزيات لها.

ومن النساء اللواتي بكينَ على الإمام الحسين عليه السلام ونصبن المأتم عليه السيدة الجليلة أم البنين فاطمة الكلابية زوجة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، فقد روى الإمام الصادق عليه السلام بأنها كانت تندب الإمام وتبكيه وقد كُفَّ بصرها، وكان والي المدينة يجيء متنكّرًا بالليل فيقف ليسمع بكاءها وندبها[36].

وأمّا النساء الهاشميات فكان لهنّ شأنهن الخاص في هذه الرزية، فلما جاءهن الخبر باستشهاد الإمام عليه السلام عَلَت أصواتهم بالبكاء من داخل دورهن فلم يسمع السامع يومذاك أشبه بواعيتهن[37]، ولبسنَ السواد وما دلَّ على حزنهن من الثياب الخشنة البالية، وكُنَّ لا يُبالين من حرٍّ أو برد لشدّة المصيبة، وقد شاركهن الإمام زين العابدين عليه السلام في تقديم ما يحتاج إليه المأتم، فكان يعمل لهن الطعام[38]، وكُنّ مما

أنشدنه من الشعر ما تضمّن انتقاد الأُمة التي انتهكت حُرمة عترة النبي ﷺ ، فأسرت بعضهم وقتلت بعضهم الآخر[39].

ونتيجة لهول المصيبة وعِظَم الحادثة وقباحة الظُلم الذي جرى على آل بيت رسول الله ﷺ، فقد كانت المآتم الحسينية عامرة بالبكاء والحضور، فقد رويَ أن النياحة على الإمام الحسين عليه السلام استمرت سنة كاملة في المدينة المنورة، ثم صار المأتم ينعقد يوم العاشر من المحرم الحرام ولمدة ثلاثة سنين، وقد فعل ذلك نساء بني عبد المطلب بحضرة الإمام علي بن الحسين عليه السلام، وكان مَن بقيَ من الصحابة والتابعين يأتون إلى مأتم النساء فيستمعون إليهن ويبكون[40].

وتخليدًا لذكرى عاشوراء، وإبقاءً لها وللمبادئ السامية التي ضحّى من أجلها الإمام الحسين عليه السلام، كان الإمام الباقر عليه السلام يفرض على الشيعي إحياء هذه الذكرى في كربلاء، فإن لم يستطع الحضور لبُعد المسافة أو لسبب مانع آخر فيوصيه بإقامة المأتم في داره ويجمع أهله ليندبوا الإمام الشهيد ويبكونه ويظهروا الجزع عليه ويُعزّي بعضهم بعضًا[41].

وكانت هذه المجالس أو المآتم الحسينية المنعقدة في كربلاء أو في غيرها من مناطق الشيعة، محبوبة عند الأئمةعليهم السلام، فكان الإمام الصادقعليه السلام، يسأل بعض شيعته عن إقامتهم للمجالس التي تُذكَر فيها مصائب أهل البيتعليهم السلام، هل أنهم مهتمّون بإقامتها؟ فلما كان جواب أحدهم: نعم، إنهم يجلسون ويتحدّثون في تلك المصائب، كان رد الإمامعليه السلام: ((إن تلك المجالس أحبّها، فأحيوا أمرنا، إنه مَن ذكرنا وذُكرنا عنده فخرج من عينه مثل جناح الذبابة غفر الله ذنوبه ولو كانت أكثر من زبد البحر)) [42].

ونالَ زوّار كربلاء المقيمين العزاء والمأتم عند القبر الشريف، عناية الإمام الصادقعليه السلام، فكان يدعو لهؤلاء القادمين من الكوفة وغيرها والذين هم ما بين قارئ وقاص ونادب وراثٍ[43]. ، وكان من بين هؤلاء الذين حضروا كربلاء وأقاموا المأتم عند القبر الشريف، أبو هارون المكفوف، فإنه كان يرثي الإمام بطريقة حزينة تُبكي الحاضرين، ولذلك لما قرأ في مأتم الإمام الصادقعليه السلام المُقام في داره بالمدينة بطريقة مختلفة عما هي عليه عند القبر، أمره الإمام بأن يقرأ بطريقته تلك، فلما قرأ أبكى الإمام وأبكى النساء اللواتي في الدار[44].

واستمرت المآتم في بيوت أهل البيتعليهم السلام، مُذكّرين الناس بما جرى يوم عاشوراء عليهم من القتل للرجال والسبي للأطفال والنساء والحرق للخيام والسلب والنهب، وكانوا شديدي التأثُّر لهذا المصاب فلا يُرى أحدهم ضاحكًا حين تحلّ أيام المحرم الحرام، فإذا كان يوم العاشر كان يوم حزنهم وبكائهم، حتى تقرّحت جفونهم من شدة البكاء وكثرته[45].

وفي كربلاء تأثّرت المآتم بعض الشيء بالوضع السياسي القائم، فكانت الطقوس ومن بينها المأتم عامرة قبل أن تصدر أوامر المتوكل بهدم قبر الإمام الحسينعليه السلام وحرثه ومنع الزائرين من إتيانه، وذلك في سنة (237هـ/851م)، ولكن هذه الأوامر لم تمنع الشيعة من الاستمرار على زيارة الإمام، فكانت أعداد كثيرة منهم تأتي وتقيم الطقوس، وقد أزعج هذا الأمر المتوكل مرة أخرى، فجدّد أوامره بنبش القبر الشريف وحرثه ومنع زيارته، فانقطع الناس عن الزيارة، وذلك في سنة (247هـ/861م)[46]، ثم عاد الناس سريعًا إلى سابق عهدهم من الزيارة وممارسة طقوسهم في كربلاء، وذلك بعد قيام المنتصر (248-247هـ/861-862م) بقتل أبيه، وسمح للناس بإتيان كربلاء وزيارة قبر الإمام الحسينعليه السلام[47].

وممّا ساعد كثيرًا على توسّع أماكن إقامة المآتم الحسينية، وجعلها خارج نطاق البيت أو عند القبر الشريف، هو مجيء البويهيين إلى بغداد، وبمجيء هؤلاء صارت النياحة والمآتم في الشوارع، وصارت الأسواق معطّلة في عاشوراء، والدكاكين مغلقة، بأوامر رسمية وذلك في سنة (353هـ/964م)[48].

واستمر التطور في المأتم الحسيني حتى صارت الكتب تؤلّف له خاصة، وهي كتب المقاتل التي هي مرآة للنظرة العامة للمأتم، ومحتواه الثقافي، والعناصر المكوّنة لهذا المحتوى، ومنها كتاب "مثير الأحزان"[49]، وقد رويَ ما يؤكّد أن تلك الكتب كانت تُقرأ في المحرم الحرام، فقد جاء في أحداث سنة (648هـ/1250م) أن السلطة العباسية منعت بعض المناطق ومنها الكرخ، النياحة والإنشاد وقراءة مقتل الإمام الحسينعليه السلام[50].

ولا أُريد أن أذهب هنا إلى أبعد من هذا الزمن في البحث عن المأتم الحسيني، ولكن تجدر الإشارة هنا إلى أن المأتم قد مرَّ بثلاثة أدوار منذ نشأته وحتى الآن:

الدور الأول: من تاريخ استشهاد الإمام الحسينعليه السلام سنة (61هـ/680م)، إلى حين سقوط بغداد سنة (656هـ/1258م) أو قبله بقليل.

الدور الثاني: من حين سقوط بغداد أو قبله بقليل إلى العصر الحديث.

الدور الثالث: من بداية العصر الحديث إلى الوقت الحاضر.

في كل هذه الأدوار اشتمل المأتم الحسيني على عنصر ثابت، وعناصر أخرى متغيرة، فالعنصر الثابت هو عرض قصة الإمام الحسين عليه السلام مع التركيز على الجانب المأساوي، منها: غلو الأمويين في ظلمهم وتنكّرهم للقيم، ومنع وصول الماء للمخيم الحسيني، وما نتج عن ذلك من حوار النسوة والأطفال مع الإمام بخصوص مسألة الماء والعطش، إلى غير ذلك الكثير، ويبلغ المأتم ذروته بذكر مصرع سيد الشهداء عليه السلام، وفي هذا الدور حصل تطوّر نوعي في المحتوى في أربعة أمور: التوسّع في عرض تفصيلات المأساة ومقدّماتها التاريخية، ونمو البُعد الفضائلي للمأتم الحسيني، وتكامل الشعر والنثر، واحتواء المأتم على مصائب الأئمة المتأخرين وسائر العلويين الثائرين[51].

وأما في الدور الثاني فقد حافظ المأتم على العنصر الثابت وهو المأساة ونقد السلطة، وأما التطور الشكلي فيه فحصل في أمرين: الأول، أن المواعيد الزمنية للمأتم غدت أكثر ثباتًا وتنظيمًا، كما أن العناصر البشرية المتفرغة للمأتم من نُوّاحٍ ومُنشدين وقُصّاص غدت أكثر عددًا، والثاني، أن اللطم في هذا الدور غدا عنصرًا أصيلًا في بعض المآتم الحسينية في العراق وإيران، وكان هذا اللطم من العادات التي أدخلها البويهيون على المأتم الحسيني[52].

وفي الدور الثالث شهد المأتم الحسيني تطورًا شكليًا وتطوّرا نوعيًا عظيميَّ الأهمية، فقد أتاح الأمن والحرية اللذين تمتّع بهما الشيعة في كثير من مناطقهم إقامة المأتم في كل وقت من العام من دون أن يخشوا من سلطان أو جمهور، كما تعددت مناسبات إقامة المأتم كما في شهري محرّم وصفر وكذلك شهر رمضان، ويعقد في وفيات أهل البيت β وغيرهم من شخصيات الطف، أو قد يكون جزءًا من مجلس الفاتحة، أو عند الانتقال إلى منزل جديد تبرّكًا، أو عند القدوم من الحجّ، وهذا التوسع في المناسبات قابله زيادة في عدد المتخصصين في هذا المجال الثقافي الديني، ويدعى أحدهم الخطيب أو خطيب المنبر الحسيني، هذا من حيث الشكل، وأما من حيث التطور النوعي فقد غدا المأتم الحسيني قوّة فاعلة في التوجيه الاجتماعي، بعدما صار الخطيب ذا ثقافة وسعة اطلاع ويتناول القضايا المختلفة منها: الاجتماعية والتربوية والسياسية، فضلًا عن الدراسات الإسلامية والقرآنية، بلغة مفهومة[53].

ومما تقدّم يتبيّن الدور المهم الذي يؤدّيه المأتم الحسيني، الذي صار يعقَد في مناسبات كثيرة وأوقات متعددة وبلدان مختلفة، وقد لاحظَ علماء الشيعة تلك الأهمية، فانبرى بعض منهم لا سيما من رجال القرن الثالث عشر والرابع عشر الهجريين/ التاسع والعشرين الميلاديين، إلى تسجيل جملة من الفوائد التي يحققها المأتم، منها:

أوّلًا: إنها من دلائل صدق الموالاة للنبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام، فهي مواساة لهم في حزنهم[54].

ثانيًا: إنها جامعة إسلامية، ورابطة إمامية، باسم النبي صلى الله عليه وآله وآله عليهم السلام ينبعث عنها الاعتصام بحبل الله المتين والتمسُّك بثقلَي رسول الله صلى الله عليه وآله[55].

ثالثًا: تؤدّي دورًا في نصرة الحق وإحيائه، وخذلان الباطل وإماتته، وهي الفائدة التي من أجلها أوجب الله تعالى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالقلب وباللسان وبالجوارح[56].

رابعًا: لها تأثير على كل فرد إمامي مُشارك في جعله راسخ الاعتقاد بالمدرسة التي ينتهي إليها، شديد اليقين بها[57].

خامسًا: أنّ فيها حثّ على وجوب معرفة الفضل والصفات السامية لأهلها، وفي ذلك من الحث على وجوب الاقتداء بهم ما لا يخفى[58]. **سادسًا:** إنها مدرسة يسهل فيها التعلّم والاستفادة لجميع طبقات الناس، فيتعلمون فيها التاريخ والأخلاق والتفسير والخطابة والشعر واللغة وغير ذلك[59].

سابعًا: أن فيها تأليفًا للقلوب بالتزاور والاجتماع، والتحادث والتعاون والتعارف، وإعانة الفقراء والضعفاء بما يُنفَق فيها من المال والزاد[60].

ثامنًا: لها دور في جذب الناس إلى الاستماع إلى الفضيلة والموعظة وتعلُّم بعض المعلومات الإسلامية، فهي تسهم في منع هؤلاء من الذهاب إلى مجالس الباطل والقهوات المعلوم حالها[61].

الخاتمة :

بعد دراستي للموضوع الموسوم بـ (البكاء والمأتم في الطقوس العاشورائيه الكربلائية) توصلت الى مجموعة من النتائج وهي :

إن كثيرا من الطقوس العاشورائيه لها جذور اسلامية اصيلة ، وهي تاسيس الائمة عليهم السلام، في القرون الثلاثة من الهجرة ،مثل البكاء ،وأقامة المأتم ،وانشاد الشعر ،كذلك ان تشجيع الائمة الاطهار عليهم السلام على احياء القضية الحسينية ،وحبهم لاقامة المجالس ،جعل الشيعة يستقتلون من اجل هذا الاحياء ،لذلك فشلت محاولات الامويين والعباسيين ومن جاء بعدهم في اخماد تلك القضية .

الهوامش

(1) معلوف ،المنجد ،ص 468.

(2) دينكن ،ميشيل ،معجم علم الاجتماع ،دار الطليعة ،بيروت ،ط 1 ،1981م، ص 176.

(3) سورة النجم ، الاية: 43.

(4) سورة يوسف ، الاية :84.

(5) المدائني ،علي بن محمد(ت234هـ/838م) التعازي، تحقيق:ابراهيم صالح،ط1،دار البشائر، دمشق، 2003م، ص23.

(6) ينظر: ابن سعد، كتاب الطبقات الكبير، ج6، ص418/417؛ ابن حنبل ، مسند. الامام احمد بن حنبل، ج2 ، ص78؛ الخزاز القمي ،علي بن محمد (ت:ق4هـ/ق10م) ، كفاية الاثير في النص علاء الأئمة الاثني عشر ، تحقيق : عبد اللطيف الحسيني ، الخيام، قم، 1401هـ ،ص188.

(7) ينظر: الصدوق، ألأمالي ، ص694 .

(8) ابن قولويه ، كامل الزيارات، ص214.

(9) ابن قوليه، كامل الزيارات، ص216.

(10) وهم: ادم ، ويعقوب، ويوسف، وفاطمة ، وعلي بن الحسين (عليه السلام).الصدوق ، الأمالي ، ص204.

(11) ابن قولويه، كامل الزيارات، ص213؛ الصدوق، الأمالي، ص204.

(12) ابن قولويه ، كامل الزيارات، ص213–214.

(13) ابن قولويه ، كامل الزيارات، ص207.

(14) الكليني، الكافي ، ج4، ص582–583.

(15) الفراهيدي، الخليل بن احمد (ت:170هـ–786م) كتاب العين ، تحقيق: مهدي المخزومي ، وابراهيم السامرائي، ط2 ، مؤسسة دار الهجره، قم ، 1410هـ، ج4، ص185(المادة : صرخ).

(16) ابن قولويه ، كامل الزيارات، ص167 –168.

(17) ابن قولويه ، كامل الزيارات ، ص 211–212.

(18) الصدوق ، ثواب الأعمال، ص84–85.

(19) ينظر : الكليني ، الكافي ، ج6، ص391.

(20) ينظر : الشاهرودي ، مستدرك سفينة البحار، ج7، ص212.

(21) الصدوق، الأمالي، ص190–191.

(22) ينظر : ابن منظور ، محمحد بن مكرم(ت:711هـ/1311م)، لسان العرب، ادب الحوزه ، قم،1405هـ، مج 2، ص557(المادة: قرح).

(23) الموسوي ، رياض، البكاء على الحسين (عليه السلام) واثره في تكامل النفس والمعرفة (بحوث اية الله الشيخ محمد السند)، ط1 ، مركز الأمير (عليه السلام) الثقافي، النجف الأشرف، 2013، ص84.

(24) الصدوق، الأمالي ، ص192.

(25) الحيدري ، تراجيديا كربلاء ، ص317.

(28) الحيدري، تراجيديا كربلاء، ص321–322.

(29) ينظر: ابن منظور ، لسان العرب ، مج12،ص3(المادة: اتم).

(30) الجواهري، اسماعيل بن حماد (ت: 393هـ/1002م) ، الصحاح تاج اللغه وصحاح العربية، تحقيق: احمد عبد الغفور العطار3ط4، دار العلم للملايين، بيروت، 1987م، ج5، ص1857(المادة: اتم).

(31) ينظر: ابن منظور ، لسان العرب، مج12، ص3(المادة: اتم).

(32) المظفر، نصرة المظلوم، ص25.

(33) شمس الدين ، محمد مهدي ، ثورة الحسين في الوجدان الشعبي، ط1، الدار الأسلاميه ، بيروت ، 1980 م، ص223.

(34) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، مج 3، ص340.

(35) الشجيري ، يحيى بن الحسين(ت: 499هـ/1105م) كتاب الأمالي وهي المعروفه بلأمالي الخمسية ، تحقيق: محمد حسن اسماعيل، ط1، دار الكتب العلمية ، بيروت، 2001م، ج1، ص216.

(36) الشجيري ، كتاب الأمالي ، ج1 ، ص230.

(37) الطبري، تاريخ الأمم الملوك، مج ، ص341، ؛ المفيد ، الأرشاد، ج2 ، ص 123.

(38) ينظر : البرقي ، المحاسن ، ج2، ص420 .

(39) ينظر: المفيد، الأرشاد، ج2 ، ص123.

(40) القاضي النعمان ، النعمان بن محمد (ت: 363هـ/973م) المجالس والمسايرات ، تحقيق: الحبيب الفقي ، واخرون ، ط1 ، دار المنتظر ، بيروت ، 1996م ، ص103 .

(41) الطوسي، مصباح المتهجد ، ص 772.

(42) الصدوق ، ثواب الأعمال ، ص 187.

(43) الكليني، الكافي ، ج4، ص 583؛ ابن قولويه ، كامل الزيارات، ص539.

(44) ابن قولويه ، كامل الزيارات، ص210 –211.

(45) ينظر: الصدوق، الأمالي، ص190–191.

(46) الطوسي ، الأمالي ، ص328 –329.

(47) ابن الأثير ، الكامن في التاريخ ، ج6 ، ص 1880

(48) ابن الأثير ، الكامن في التاريخ ، ج7 ، ص245.

(49) شمس الدين ، ثورة الحسين في الوجدان الشعبي، ص 2510.

(50) ابن الفوطي ، عبد الرزاق بن احمد (ت: 732ط/ 1323م) الحوادث الجامعة في التجارب النافعة في المائة السابعة ، تحقيق: مهدي النجم، ط1، دار الكتب العلمية ، بيروت، 2003م ، ص194.

(51) شمس الدين ، ثورة الحسين في الوجدان الشعبي ، ص 249 ، 253 ، 274.

(52) شمس الدين ، ثورة الحسين في الوجدان الشعبي ، ص275 –277.

(53) شمس الدين ، ثورة الحسين في الوجدان الشعبي ص 289 –291، 293 ، 295–298.

(54) الأمين ، محسن ، اقناع اللائم على اقامة المآتم ، تحقيق : حسن بن علوي الموسوي ، ط1 ، مجمع الأمام الحسين (عليه السلام) العلمي لتحقيق تراث اهل البيت (عليهم السلام) ، العتبة الحسينية المقدسة ، 2017م، ص 357.

(55) شرف الدين ، عبد الحسين ، مقدمة المجالس الفاخرة في مآتم العترة الطاهرة، تحقيق : نور الدين الميلاني ، ط1 ، مركز الحقائق الأسلاميه ، قم ، 1430هـ ، ص109.

(56) ألأمين ، اقناع اللائم، ص357 .

(57) المظفر ، نصرة المظلوم ، ص 63.

(58) الأمين ، اقناع اللائم، ص357.

(59) ألأمين ، اقناع اللائم، ص359.

(60) الأمين،اقناع اللائم ، ص362.

(61) الأمين ، اقناع اللائم ، ص 360.

المصادر

قائمة المصادر المراجع

أولاً: الكتب المقدسة

*القرآن الكريم

ثانيا: المصادر الأولية

-ابن الأثير، علي بن محمد (ت: 630هـ/1232م)

1.الكامل في التاريخ، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، 2012م.

-البرقي، أحمد بن محمد (ت: 274هـ/887م)

2.المحاسن، تحقيق: جلال الدين الحسيني، ط1، دار الكتب الإسلامية، طهران، 1370ش.

-الجوهري، إسماعيل بن حماد (ت: 393هـ/1002م)

3.الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور العطار، ط4، دار العلم للملايين، بيروت، 1987م.

-ابن حنبل، أحمد بن محمد (ت: 241هـ/855م)

4.مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، ط2، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1999م.

-ابن سعد، محمد بن سعد (ت: 230هـ/844م)

5 ـ كتاب الطبقات الكبير، تحقيق: علي محمد عمر، ط1، مكتبة الخانجي، القاهرة، 2001م.

-الشجيري، يحيى بن الحسين (ت: 499هـ/1105م)

6.كتاب الأمالي وهي المعروفة بالأمالي الخميسية، تحقيق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2001م.

-الصدوق، محمد بن علي (ت: 381هـ/991م)

7.ثواب الأعمال وعقاب الأعمال، تقديم: محمد مهدي السيد حسن الخرسان، ط2، منشورات الشريف الرضي، قم، 1368ش.

-ابن طاووس، علي بن موسى (ت: 664هـ/1265م)

8.الإقبال بالأعمال الحسنة فيما يعمل مرة في السنة، تحقيق: جواد القيومي، ط1، مكتب الإعلام الإسلامي–مركز النشر–قم، 1416هـ.

–الطبري، محمد بن جرير (ت: 310هـ/922م)

9.تاريخ الأمم والملوك، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987م.

–الطوسي، محمد بن الحسن (ت: 460هـ/1067م)

10.الأمالي، تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية–مؤسسة البعثة، ط1، دار الثقافة، قم، 1414هـ.

–الفراهيدي، الخليل بن أحمد (ت: 170هـ/786م)

11.كتاب العين، تحقيق: مهدي المخزومي، وإبراهيم السامرائي، ط2، مؤسسة دار الهجرة، قُم، 1410هـ.

–ابن الفوطي، عبد الرزاق بن أحمد (ت: 723هـ/1323م)

12.الحوادث الجامعة في التجارب النافعة في المائة السابعة، تحقيق: مهدي النجم، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003م.

–القاضي النعمان، النعمان بن محمد (ت: 363هـ/973م)

13.المجالس والمسايرات، تحقيق: الحبيب الفقي، وآخرون، ط1، دار المنتظر، بيروت، 1996م.

–ابن قولويه، جعفر بن محمد (ت: 368هـ/978م)

14.كامل الزيارات، تحقيق: مؤسسة نشر الفقاهة، ط1، مؤسسة النشر الإسلامي، قُم، 1417هـ.

–الكليني، محمد بن يعقوب (ت: 329هـ/940م)

15.الكافي، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، ط3، دار الكتب الإسلامية، طهران، 1388.

–المدائني، علي بن محمد (ت: 224هـ/838م)

16.التعازي، تحقيق: إبراهيم صالح، ط1، دار البشائر، دمشق، 2003م.

–المفيد، محمد بن محمد (ت: 413هـ/1022م)

17.الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، تحقيق: مؤسسة آل البيتβ لتحقيق التراث، ط2، دار المفيد، بيروت، 1993م.

–ابن منظور، محمد بن مكرم (ت: 711هـ/1311م)

18.لسان العرب، أدب الحوزة، قم، 1405هـ.

ثالثًا: المراجع الحديثة

-الأمين، محسن،
19.إقناع اللائم على إقامة المآتم، تحقيق: حسن بن علوي الموسوي، ط1، مجمع الإمام الحسينφ العلمي لتحقيق تراث أهل البيتβ، العتبة الحسينية المقدسة، 2017م.
-الحيدري، إبراهيم
20.تراجيديا كربلاء، سوسيولوجيا الخطاب الشيعي، ط1، دار الساقي، بيروت، 1999م.
_دينكن ، ميشيل
21. معجم علم الاجتماع ، دار الطليعه ، بيروت ، ط1 ،1981م .
-الشاهرودي، علي النمازي
22.مستدرك سفينة البحار، تحقيق: حسن بن علي النمازي، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، 1419هـ.
-شرف الدين، عبد الحسين
23.مقدمة المجالس الفاخرة في مآتم العترة الطاهرة، تحقيق: نور الدين الميلاني، ط1، مركز الحقائق الإسلامية، قم، 1430هـ.
-شمس الدين، محمد مهدي
24.ثورة الحسين في الوجدان الشعبي، ط1، الدار الإسلامية، بيروت، 1980م.
-المظفر، حسن بن عبد المهدي
25.نُصرة المظلوم، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت).
-معلوف ، لويس
26. المنجد في اللغه والادب والعلوم ، ط19، المطبعه الكاثوليكيه،(د. م)،(د.ت).
-الموسوي، رياض
27.البكاء على الحسينφ وأثره في تكامل النفس والمعرفة (بحوث آية الله الشيخ محمد السند)، ط1، مركز الأمير φ الثقافي، النجف الأشرف، 2013م.